

2003

تحقيق وثائق تاريخ الواحات : إقتراح منهجي

امحمد احدي

h.hda@hotmail.fr, كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

"تحقيق وثائق تاريخ الواحات : إقتراح منهجي", *Dirassat*: Vol. 11 , Article 16. (2003)

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol11/iss11/16>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

تحقيق وثائق تاريخ الواحات : إقتراح منهجي

Cover Page Footnote

تتوخى هذه الدراسة المساهمة في توضيح مجموعة من الملاحظات والتساؤلات المتعلقة بالاشكاليات التي تثيرها 1- دراسة تاريخ الجنوب المغربي. 2- بالرغم من ما يمكن أن يقال في هذا الباب.

تحقيق وثائق تاريخ الواحات : إقتراح منهجي⁽¹⁾

ذ. امحمد احدى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير

عرفت الكتابة التاريخية المغربية تحولات هامة على المستوى المعرفي والمنهجي، بحكم انفتاحها على علوم مساعدة، من لسانيات وسوسيولوجيا وانتروبولوجيا وأركيولوجيا... مما سمح لها بالخروج من دائرة النمط التقليدي إلى مجال جعل من دراسة المجتمع العنصر الفاعل في صنع المسار التاريخي.

وقد يبدو أن الصعوبات المنهجية في دراسة تاريخ المناطق الجنوبية متعددة الجوانب، ولا يمكن حصرها أو قول الكلمة الفصل فيها، بل ثمة إشكاليات وتساؤلات لا بد من الإجابة عنها وتدقيق النظر فيها، لإعادة تقويم كل ما كتب حول تاريخها في الماضي، من ذلك القول أن كل ما كتبه الأوروبيون هو عبارة عن أحكام مغلوطة⁽²⁾ أو أن كل ما كتبه المغاربة هو دائما عين الصواب والحقيقة المطلقة. وبعبارة أخرى هل المطروح علينا اليوم هو الاكتفاء بالتشهير بخلفيات التفكير في سبيل كتابة تاريخ الجنوب وفق أسس جديدة، قوامها حس نقدي كفيل بنفض الغبار عن مصادر تاريخنا؟.

إن هاجسنا من طرح مثل هذه التساؤلات هو وعينا التام بوجود ثغرات في المصادر المكتوبة على مستويات مختلفة، فإذا كانت الكتابة الكولونيالية قد اتجهت إلى

(1) تتوخى هذه الدراسة المساهمة في توضيح مجموعة من الملاحظات والتساؤلات المتعلقة بالإشكاليات التي تثيرها دراسة تاريخ الجنوب المغربي.

(2) بالرغم مما يمكن أن يقال في هذا الباب.

سلوك متطرف في تزييف حقائق التاريخ المغربي، لأهداف استعمارية واضحة، ساهمت من خلالها في تأطير المشروع الاستعماري ببلادنا⁽³⁾ فإن "الكتابات الوطنية"⁽⁴⁾ قد التجأت في المقابل إلى نهج نفس السلوك المتطرف في تقديم صور مشرقة عن ماضينا، في تعارض بين مع الصورة السوداوية التي وضعها الباحثون الاستعماريون. ولم تأخذ هذه الصورة التي وضع معالمها علماء كبار، من أمثال محمد داود والمختار السوسي وغيرهما، في التغيير إلا في بداية الستينيات.

فبالرغم من هزالة الميزانية المخصصة للبحث العلمي ببلادنا، بدأ اهتمام العديد من الباحثين والطلبة وأوساط علمية، بالوثائق التاريخية والمخطوطات واعتمادها كمصادر لبحوثهم وأطروحاتهم الجامعية، نظرا لغناها المعرفي والتراثي وكشفها عن بعض النقاط الغامضة والحساسة في تاريخنا. بل إن هناك بعض المدارس التي جعلت من المخطوطات مصادر مقدسة، ولا تصدر أحكامها إلا انطلاقا من دراستها وتحقيقها. في هذا الإطار، ارتأيت من خلال هذه الدراسة أن أثير الانتباه إلى أهمية الوثائق، بتعريفها وتحليلها على اعتبار ما هو مخطوط، كيفما كان نوعه : وثيقة تاريخية تعود إلى فترة زمنية معينة ومكتوبة بخط مختلف عن الخطوط المتداولة الآن⁽⁵⁾.

إن الباحث اليوم يجب عليه أن يكون مقتنعا بضرورة جمع المواد الأولية من مخطوطات ومستندات، باعتبارها المفاتيح اللازمة لكل كتابة تسعى إلى قراءة التاريخ الحقيقي لأية منطقة مدروسة.

بالنسبة لمناطق الوحات يستحيل القيام بأي عمل جاد دون الاعتماد على الوثائق، لكن هناك صعوبة في الاطلاع عليها، نظرا للاحتراس الشديد الذي يبديه السكان عندما يتعلق الأمر بالكشف عن كل ما هو مخطوط. وقد شكل الاحتراس عقبة فعلية في وجه كل الباحثين، ولا زالت المنطقة تحتفظ برصيد مهم من الوثائق المحفوظة في قوارير من القصب. ورغم ذلك استطاع العديد من الباحثين الحصول على مجموعة قيمة من الوثائق تسمح بالتعريف بالقيمة الحضارية لهذا التراث، إذ عملوا بإمكانياتهم الذاتية على الحفاظ عليه. إلا أن هذه المجهودات - التي يشكرون عليها - غير كافية، فالتوثيق

(3) تراجع في هذا الصدد كتابات L.JUSTINARD و R.BASSET و H.TERRASSE وغيرهم.

(4) من بين روادها مؤرخي الحركة الوطنية : علال الفاسي والمختار السوسي...الخ.

(5) لم تدخل المطبعة الحجرية إلى المغرب إلا في سنة 1864م.

وسيلة من وسائل الحفاظ على الذاكرة الوطنية ويتطلب مجهودا جماعيا وإمكانيات مالية وبشرية، لأن الطرق المستعملة سابقا، لم تعد ناجعة لحماية الوثيقة من الأرضة والخروم.

إن الدول الرائدة في مجال البحث العلمي، أضحت توظف كل ما لديها من خبرة علمية وموارد مالية لصيانة وثائقها وفق تقنيات حديثة، من تصوير واستعمال لآخر مبتكرات الإعلاميات. كل ذلك بقصد الاستفادة منها للتعرف على جوانب مختلفة من حياة مجتمع الواحات، وفي رصد العلاقات القائمة بين السكان من أجل التعاون على استغلال المجال والوقوف على طبيعة النزاعات بينهم، بسبب استغلال الأراضي المشتركة وتقسيم حصص السقي وغيرها من المظاهر الاجتماعية. وهو ما يطلق عليه محليا "تعقدين"⁽⁶⁾ "أو" أزرف"، وهي القوانين التي يعمل بها سكان الواحات في جنوب شرق المغرب. وتتضمن حلولاً لكل المشاكل المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية، سواء بين الأفراد أو بين القبائل وحتى بين الاتحاديات، فيما يخص الدفاع عن القصر⁽⁷⁾ وتنظيم الحياة داخله والدفاع عن المساحة المزروعة وتنظيم الحياة الفلاحية وكذا نظام الملكية العقارية ووضع الحراطين⁽⁸⁾ بالإضافة إلى ما تشيره هذه الوثائق من قضايا تتعلق بالمعاملات، من عقود البيع وعقود الأنكحة و يتعلق بمجالات مختلفة في الآداب والفكر والمناقب والنوازل...تفيد في معرفة بنية المجتمع وملاحم من حياة الأفراد والجماعات، وما تخزنه من إفادات قيمة عن الأوبة والجماعات وانعكاساتها على المجتمع.

وقد تبين لنا، ومن خلال التحريات الميدانية، مدى أهمية هذه الوثائق وما تزخر به الذاكرة الشعبية من معلومات غنية عن الأحداث التي عرفها هذا المجتمع منذ العهود القديمة، من دون إغفال الاعتماد على مصادر أخرى مساعدة، من أدب شفوي ولغات متداولة (أمازيغية وعربية) وأزياء وعادات وتقاليده وبقايا أثرية وطرار معماري...تشكل في مجملها مصادر بالغة الأهمية، لكون المعلومات التي تقدمها عن المكان المدروس، تكون

(6) جمع تعقيدات : وهي القوانين والأعراف الجاري بها العمل في مجتمع الجنوب المغربي، وتتوفر على مجموعة من هذه القوانين العرفية الخاصة باتحادية آيت عطة وقبيلة آيت مرغاد وكذلك أعراف منطقة تودغة، نتمنى نشرها في القريب العاجل.

(7) القصر: الوحدة السكنية في مجتمع الواحات.

(8) الحراطين : من أهم الفئات الاجتماعية بالواحات، ليس من حيث عددها وإنما أيضا من حيث أهميتها الاقتصادية، إذ تعتبر أقدم فئة بشرية عمرت واحات الجنوب المغربي، ويقتصر دورهم الأساسي، على الفلاحة وخدمة الملاك الحقيقيين.

غاية في التوضيح الصادق الدقيق، يصل أحيانا إلى درجة رصد مشاهد الحياة اليومية وتسجيلها.

ولإبراز أهمية هذه المحفوظات في عالم الواحات، لا بأس من إعطاء لمحة قصيرة عن المعطيات التاريخية والسوسيولوجية والاقتصادية لهذه المنطقة المنسية والمهمشة من المغرب، والتي تعيش فيها تجمعات بشرية من رحل ومستقرين مع سيادة نمط الاقتصاد البدوي في إطار القبيلة، وضمن ما توفره الأشرطة الضيقة للوديان، من زراعة وتربية الماشية وبعض الأشجار المثمرة (النخيل بدرجة أولى).

لقد عاشت هذه المجتمعات، وبفعل هذه الدورة الاقتصادية، نمط إنتاج قلة معتمد على التكافؤ والتبادل، ضمن إطار حلقة ضيقة منغلقة لا يتعدى مداها القصر، حيث تتم المقايضة رغبة في تحقيق وسائل الاستهلاك المعاشي. ويعتبر القصر ركيزة اقتصادية أساسية في تنظيم العلاقات الاقتصادية في هذا المجال القبلي المنغلق والمنكمش في ظل أحلاف قبلية⁽⁹⁾ خارجة عن نطاق نفوذ السلطة المركزية المتمثلة في المخزن.

وقد وقفت عدة مصادر عند هذا التدهور السياسي، خصوصا بعد وفود قبائل بني معقل إلى المنطقة، حتى أن الوزان لا يصف لنا منطقة أو قرية إلا وذكر ما لحق بها من خراب، بسبب الحروب والفتن⁽¹⁰⁾، تتضافر إلى ذلك عوامل أخرى كتغيير اتجاه الطرق التجارية الآتية من السودان، والتي شكلت الواحات الجنوبية، حلقة وصل أساسية بينها وبين باقي المناطق المغربية. وكان من نتائج كل ذلك تدهور أوضاع الواحات وانخفاض مستوى العيش بها وتوالي فترات المجاعات...

أما فيما يخص التشكيلة الاجتماعية بالواحات⁽¹¹⁾، "فقد كانت تعيش بها فئتان اجتماعيتان: فئة الملاك والأسياد وأغلبهم من البيض، أمازيغ أو عرب، وشرفاء حسب الأماكن : فالشرفاء يستمدون نفوذهم من نسبهم الشريف أو من الانتساب إلي زاوية. وفئة الحراطين والعبيد واليهود، وعددهم كبير، وهم أتباع الفئة الأولى يمثلون فئة الخماسة.

(9) من أهم هذه الأحلاف نذكر : حلف آيت عطة وحلف آيت يافلمان.

(10) الوزان، الحسن، "وصف إفريقيا"، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1980، جزآن، (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر).

(11) عن التراتبية الاجتماعية في مجتمع الواحات يراجع مقال :

D.Jacques MEUNIE, "Hiérarchie sociale au Maroc présaharien" Hesperis T, 14, 1958.

إن أول ما يجب القيام به هو القراءة المتأنية للمخطوط ومحاولة فك رموزه Déchiffrement وإعادة كتابته بخط مقروء و مفهوم Transcription، كما يجب الاهتداء إلى العصر الذي كتبت فيه الوثيقة بتحليل الخطوط⁽¹⁴⁾، وهي عملية صعبة تفرض الكثير من الدراية، كما يجب مراجعة نوع الورق المستعمل والإمضاءات ومقارنتها بمخطوطات أخرى ترجع إلى نفس المنطقة ونفس الفترة.

بعد الاستئناس بخط الوثيقة نشرع في عملية التحقيق، وهذه العملية تعني إنقاذ الوثيقة من الضياع والتلف، وبذلك يكون المحقق قد دخل عصر الوثيقة من خلال فهمه لخطها ومضمونها، لتبدأ عملية تمثيل وقائعها وإعادة أفكارها وعباراتها، وهذا لن يتحقق إلا من خلال التمكن من منهجية دقيقة.

ولعل أولى الخطوات في التعامل مع الوثيقة هي وضع عنوان لها والإشارة إلى تاريخ كتابتها وتحديد طبيعتها : هل هي رسالة؟ أو عقد؟ وفي حالة انعدام هذه المؤشرات يجب على الدارس التحقق من كل ذلك. وقبل الخوض في عملية التحقيق لابد من توفر بعض الشروط، حتى لا تشوب العملية الأخطاء والنواقص، ومن أهم هذه الشروط :

. أن تكون الوثيقة غير مدروسة وغير محققة؟

. أن تكون للوثيقة قيمتها العلمية، أي أنها غنية في موضوعها ومادتها وجزئياتها، ذلك بحسب الموضوع المدروس. ولمتابعة عملية التحقيق لابد أن ننبه إلى أن على المحقق أن يشير في الهامش إلى كل الإضافات والمصادر المعتمدة وكل التعديلات التي أحدثها في النص، سواء بالزيادة أو بالنقصان، وفي حالة عدم تمكن المحقق من إكمال نقص في الوثيقة فعليه إثبات ذلك في الهامش، مع وضع نقط داخل المتن بقدر الحيز المنقوص. كما يسمح للمحقق أن يعتني بتصحيح الأخطاء اللغوية والإملائية الموجودة في النص، وتفسير آراء المؤلف وشرح تلميحاته والغامض من كلامه، وشرح المصطلحات الواردة.

(14) فلكل عصر خطوطه وطريقته للكتابة.

وآخر الخطوات هي ترقيم صفحات الوثيقة ووضع علامات الوقف، وكل ما له صلة بتنظيم النص، حتى يتسنى إخراجَه على الوجه الأكمل وفي صورة النصّ المقروء.

هذه أهم الخطوات التي تساعد على تحقيق المخطوطات والوثائق في مجتمع الواحات، وهي عملية صعبة وشاقة في آن واحد لأنها تجعل الباحث المحقق على اتصال بوثيقة يجهلها في أول الأمر ويعمل جاهدا لتصبح أكثر فهما، ليستفيد منها ويفيد بها الآخرين حتى لا تضيع في دائرة النسيان.

وعندما تتم هذه العملية يجب نشرها وفق القواعد العلمية المعروفة، وأول خطوات النشر الصحيح تمر عبر تصوير الوثيقة، وتثبت ذلك للتدليل على أن الباحث اطلع فعلا عليها، مع الابتعاد عن عملية النسخ واعتماد التصوير الفوتوغرافي فقط.

وفي الأخير، بدا لنا أن نهمس في آذان الباحثين، بضرورة البحث عن الوثائق المخطوطات، كيفما كان نوعها، والعمل على إخراجها، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لنفض الغبار عن تاريخ منطقة الواحات وإعادة كتابته، لما له من أهمية في تاريخ المغرب خصوصا تاريخ العلاقات مع إفريقيا جنوب الصحراء، باعتبار مكانة هذه المنطقة كمحطة أساسية في أحداثه، لوضع مسألة الوثائق في سياق تطور البحث التاريخي كسلاح سياسي وأداة لإثبات الهوية التاريخية المغربية.